قصة مصرية

البـــــــــدوية

بقلم الأديب محمد افندى السيد

جلست وصديقى (ع) تحت الشجرة نتحادث . وصديقى (ع) فتى حلو الحديث دقيق التعبير رقيق الشعور — ولقد تحس وهو يتحدث إليك كأنك تشرف على ملعب تمثل فيه الحوادث التى يقصها

أطرق صديقى إطراقة . . . ثم قال آه ! سنوات خمس ياعزيزى منذافترقنا للمرة الأخيرة . . . . ثم استطرد فقال : ولطالما ذكرتك وذكرت هذه الشجرة وهذا المكان بما يذكر بحبيب غاب عنه و بقيت لديه ذكراه ماثلة لا تفارقه لحظة . . . . . على أن هناك ياعزيزى . . . نعم هناك فى الريف حياة أخرى حياة دعة وسكون ، حياة تشبه حياة الملائكة من بعض نواحيها

فى الريف . . . لا تشهد اعتصار العالم تحت عجلة التكاليف الثقيلة ولكن ثم أنواع من السذاجة والبساطة فى كل شىء . فقلت ولكن خبرنى ياعزيزى ألا تزال عند رأيك الأول من أن العفاف لدى المرأة حال ضرورة فقط قد تلتزمها بعض الأحيان لظروف خاصة ؟

قال صاحبى نعم لقد كان هذا رأيى ، وكان رأيك أيضا وأنت تدرك كيف أننا قررنا هذا الرأى تحت ضغط شديد من تيار مدنية هذا العصر حيث جرفها سيلها ـ فأدلت إلى الرذيلة بدلوها وتورطنا فيما يتورط فيه الشباب عادة من حمأة الفساد وجنون الشهوة

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

قلت ذلك حق أى حق . ولكن أليست المرأة هى المرأة هنا وهناك . وفى كل عصر من عصور التاريخ ؟

قال بلى ! إن المرأة هى المرأة منذ هبط آدم وحواء إلى هذا العالم . على أن النظر قد يختلف فى تكييف الوقائع وتقرير التاريخ . ومن ثم تدرك اختلاف الناس فى تقرير مصائر الأمور . وهـذا عندى هو السر فى أن تختلف مذاهب الناس فى فهم شىء واحد . ولقد علمت بالاستقراء وبالتجربه العملية ، أن الطهر . والعفاف وما إلى ذلك من ألوان الفضيلة قد تكون عند المرأة حقائق ثابتة لا مجرد خيال أو وهم . وأنت تدرك من القصة الآتية كيف يكون ذلك :

منذ فبراير سنة ١٩٢٣ صدر أمر الحكومة بنقلى للأقاليم ، فما كان أشد وقع هذا النبأ المؤلم على نفسى الضعيفة المنهوكة . حقا لقد كان أسوأ الأنباء . وأقتلها ، تعرف ذلك جيدا . وتعرف سره ، أليس كذلك ؟

قلت بلى أعرف هذا ولا أنساه .

قال : ولقد سافرت لمركزى الجديد بعدمطل وتسويف . ولشد ماأظلمت الدنيا فى وجهى وضاقت عـــلى الأرض بما رحبت ، فلا ملهى ولا ملعب ولا مايؤمه الناس فى المدينة عادة لقصد السلوى وقتل الوقت

وعمال الحكومة فى القرى إليهم أعناق الناس مشرئبة ترمقهم أنظار الخاص والعام وإذا شئت أن تعرف أكثر من ذلك فهم ضمن نطاق من أعين الجميع ، إذ الكل عليهم رقباء . بل الكل ألسنة نقد حداد !

ومن شاء منهم أن يحتفظ بما لمركزه من هيبة و وقار فعليه أن يكون ناسكا ليس غير

تحت تأثير هذه العوامل أجمع ، أكرهت على أن أغير مجرى الأمور فى جميع أسباب معيشتى من كل الوجوه ، ولقد بدا لى الوقت طويلا ثقيلا ، فكيف أقطعه ؟ أأقتل الزمن كما يقتله إخوانى من الذهاب للعمل ثم العـــودة للمنزل وتناول الطعام والذهاب لمشرب القهوة وإضاعة الوقت فى التحدث إلى الأخوان و فى لعب النرد أوالورق أوالشطرنج الخ الخ . . . . ؟

لا ، إنى لا أميل إلى شىء من ذلك

إذن ماذا أدبر لنفسى ؟

أحب الخيل من كل قلبى . . . .

ابتعت مهرا لم يشارف بعد ربيعه الرابع ، له محاسن الخيل مجتمعة ، وفيه ظرف ودلال و (قنزحة) . ولو أن الله اقتضت إرادته أن يبعث امرأ القيس مرة أخرى ، لأسمعنا فيه خيرا من قوله :

له أيـــطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

مكـر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وبهذه الوسيلة وجدت سلواى ، ولشد ما استحالت كل مشاعرى و إحساساتى إلى أمر واحد هو تذليل هذا المهر والعناية بجميع شؤونه حتى ما كنت أترك لخادمى أمر خدمته وحده ، بل كنت أتولاها معه وكثيرا ما قمت بها بنفسى .

ولقد مللت الجرى فى الطريق المعبدة ومسابقة القطار (القادم من المنصورة) فلطالما سبقت القطار . ولطالما أدركت القطار ! ! ! !

ولست أعرف كيف أصف لك ماكان يشملنى من سرور . ويعرونى من نشوة وطرب . حتى لقد ازددت كلفا به إلى درجة مقلقة فنسيت كل شىء إلا هو

وقبيل الغروب فى ذات يوم سلكت طريقا جديدة . ثم واصلت السير فى طريق أخرى غير معبدة حتى وصلت إلى التل . ولعل ذلك التل بقايا مدينة قديمة أدركها الفناء منذ أجيال عديدة .

وفى سفح التل من الشمال كان قطيع من الضأن يرعى الأعشاب بل الأشواك المبعثرة هنا وهنالك . إذاً فليكن مسيرى فى غير اتجاه هذا (الجيش) حتى لا يعكر علىّ صفاء نزهتى ، فبدأت أسير الهوينا فى وسط التل تماما من الشمال إلى الجنوب وماعتمت حتى رأيت جموع الضأن ومايتبعها عادة من حمر وكلاب وبنات حوّاء قد بدأت تتدفق من الشمال إلى الجنوب وبسرعة البرق أدركتنى ثم أخذت على طريقى فعلا وكانت طريقا صعبة ملأى بقطع من الأحجار الصغيرة المبعثرة فى جميع أنحاء التل .

ولقد تولانى الذهول حين رأيت تلك البدوية فى ثيابها الفضفاضة وإزارها العريض ، وخفها المكشوف ، تتقدم القطيع تحدوه وتناديه بألفاظ عربية بلهجة غير مفهومة وغير واضحة .

بدا لى أن أداعب (البـــدوية) هذه التى اضطرتنى إلى الوقوف على الجبل والاهتمام بما عساها تريد من هذه الحركة الحربية ؟ ! !

ماذا يستثير اهتمام الجلف من أهل البداوة ؟ لاريب فى أنها ساذجة إذا بدأتها بالكلام قدتسىء إلىّ : إذن فلتتكلم هى :

تركتها وشأنها تعانى جمع الضأن حول نقطة الارتكاز حول الصخرة . الصخرة الوثنية ذات النقوش القديمة . ثم لويت عنان مهرى فدار حول الصخرة مرات وما كدت أفرغ حتى بدت عليها علائم الدهشة ودنت منى وتكلمت فلم أجاوب فاقتربت وتكلمت وأجبت

ولشد ما أدهشنى واستثار كوامن نفسى وهز عواطفى مابدا فى حديث هذه البدوية من رخامة صوت ، ولين حركات . فى دقة تعبير ، وصدق ملاحظة ، وظللت هكذا مبهوتا بل متدلها . وكنت فيما مضى أعشق لونا من الأوانس وكان جلة أصدقائى يعيبون على مذهبى هذا كأن الله قد خلق الناس جميعا من طبيعة واحدة .

وكأن ليس ثمت فارق بين أهوية أهل الأرض وأمزجتهم وكأن يجب عليهم أن يكونوا من صعيد واحد فى التفكير وفى النظر إلى أوجه العالم المختلفة وحتى فى العاطفة وفى الحب أيضا .

كأن هذه السيقان السمراء الدقيقة : وهذا الوجه النحاسى وهذه العيون النجل ذوات الحدقات الواسعة البراقة ، وهذا الجرم الدقيق ، والأديم الرقيق لاتستحق إعجاب المعجبين ولا عشق العاشقين ؟ لست أكتمك : لقد فتنت لمجرد النظرات الأولى وذلك الحديث المشجى

إذن نتحادث وإذن يطول الحديث . فالموقف دقيق فيه حلاوة الواقع ومرارة المانع

أخذت أستشير ماسبق من الحوادث . لعلى أوفق لاقتناص هذه العصفورة . وكنت كلما تقـدمت إلى الأمام خطوة زحزحتنى للخلف خطوات . وفى اللحظة الأخيرة . وقد يئست ، إذا بصاحبتى تنهزم . و إذن انتهينا ووقعت « المصارى(١) » فعلا .

أشارت إلىّ بالانحدار إلى بطن الوادى شرقا حيث أجد مكانا صالحا للقيانا .

لم أشك لحظة منذ تهيأت أسـباب الظفر فى صدق صاحبتى فأخذت طريقى إلى الشرق واتجهت هى نحو الغرب . ومع أننا سرنا فى اتجاهين متضادين فأنى لم أدرك تماما ما دبر لى إلا حين انتهيت إلى آخر التـل شرقا وانتهت هى إلى نهايته غربا ثم أخذت طريقها للقرية المجاورة واختفت مع قرص الشمس الحائل تحت الأفق : الأفق البعيد : الآن وقد هجم الظلام وأوحش المكان فلاسبيل للبقاء ، يممت نحو المدينة وأطلقت لمهرى العنان وعدت أدراجى

قلت ألم تعد لهذا المكان مرة أخرى ؟

قال بلى عدت مرارا . . . .

وهل رأيت صاحبتك ؟

نعم رأيتها

وماذا قالت ؟

لم تقل شيئا وإنما ضحكت ضحكة الأشفاق والسخرية .

محمد السيد

(١) النقود . كما يعبر بذلك أهل الشام والبادية أيضا

مطبعة الجمـــل بمصر

مستعدة لطبع جميع ما يطلب منها من الكتب والمجلات على اختلاف أنواعها مع العناية وحفظ المواعيد

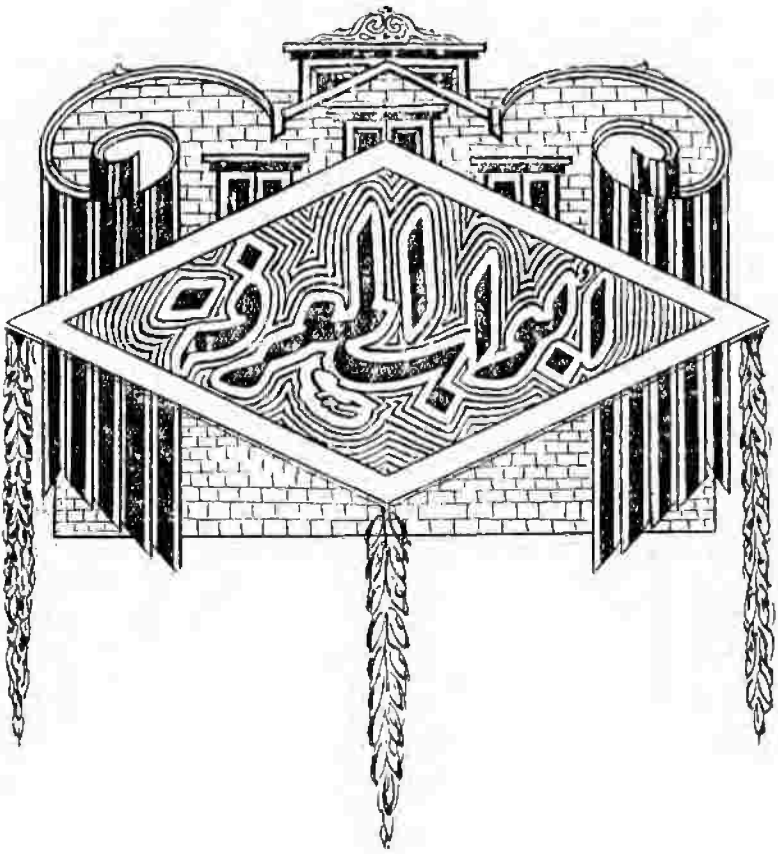
أبو الحسن المرزوقي